الخيل بفرسانها!

رشا الأمير(*)

دم قلبي وعقلي. نور عينيّ وحرّ عمري، كلّ ذلك بذلته وسوف أبذله من أجل دار الجديد، مؤسستنا النشريّة المنمنمة. بيد أنّ الدم والنور والحرّ مرتخصون، على ما يبدو، في موازين بلاد تشغلها المقاتل المصيريّة، وأمّهات المعارك المبغضة للعقل والعلم.

بسخريّة مرّة، يخبرني صديق عراقي عمل لسنوات في اليونسكو أن ما يُصرف على الصحف والمجلات والكتب والجامعات في العالم العربي مخجل، إن هو قورن بالميزانيات الطنّانة التي تبذلها البلاد العربيّة الثريّة ـ التي لم يُعرف لها انتصار في معركة ـ لشراء أسلحة ومنظومات دفاعية معقّدة، آيلة بلا ريب إلى نوع من أنواع الكساد. شراء طائرة واحدة وصيانتها قد يموّلان برأيه مطبوعة أسبوعيّة جادّة، لمدّة طويلة ! فماذا لو ساءلنا أولياء أمورنا عمّا يصرفونه على طائرتين ودبّابتين وباقة من الصواريخ؟ صديق آخر، لا يعتب عليه مؤتمر من تلك التي تُعقد في الفنادق الفخمة، نظر إليّ ذات مرّة والحسرة بادية في نظراته: « لو تبرّع لكم هذا الفندق بمدخوله ليوم واحد لتمكّنت داركم من السّخاء على كمّ هائل من الكتب الجيّدة. لو فكّر القيّمون على

(*) ناشرة وروائية.

هذا الصرح السّياحي الذي يستقبل مئات المتنفّذين المحتاجين مبدئياً لتغذية عقولهم بالقراءة، لفتحوا فيه ولو كشكاً لبيع الجرائد والكتب. هل لاحظت أن الصحف والمجلات والكتب الرائجة صعبة المنال في بلدكم المتبجّح بصحافته ودور نشره، والفقير في مكتباته؟». لاحظت، اجل، لاحظت أن البلد الذي يحطّم، قياساً لحجمه الضئيل، أرقاماً فلكيّة في عدد مدارسه ومعاهده وجامعاته هو نفسه البلد الذي لا يتمكّن من استهلاك ألف نسخة من كتاب مرموق!

تناقضات فاحشة يراها ويلمسها العاملون الجدّيون والضميريون في مقالع الفكر والفن والصحافة والتدريس والنشر، فلا داعي لنكء الجراح ولا للتدقيق في الأرقام المفجعة. لا حاجة لجلد الذات، فالمهرجانات الصيفية تغصّ باحاتها بالمتفرّجين، ومحطّات التلفزة تتناسل كالنّمل، والهواتف النقّالة وما ترتّبه من مصاريف على مستعمليها هي سيّدة الموقف.

حسناً أيّها المريدون الخير والازدهار لبلادنا المكلومة وغير القادرين، مثلي، إلاّ قيد أنملة أو أنملتين من التّأثير على مشاهدنا السياسيّة والأخلاقيّة والفكريّة، وصلتني الرسائل جميعها، ومختصرها أنّ عالم اليوم تسترقّه التكنولوجيا الساحرة، وجلّنا موافق على هذا الاسترقاق غير المقعّد له بوضوح حتّى الساعة.

قبل أشهر أطلقت شركة أبل الجبّارة كتابها الإلكتروني. صحيح أنّ شركة التفّاحة ليست السبّاقة هذه المرّة ـ فشركات كثيرة، وآخرها أمازون، تحاول حظّها منذ عامين في هذه السّوق ـ إلا أن الشركة «الترندي» وبطبل وزمر إعلاميين، قد قررت التموضع في قلب بورصة ستشتعل بالمليارات إن أحبّ المستهلكون سلعتها القرائيّة القشيبة (على غرار ما حدث أيّام الأي بود).

تصلنا، متأخرة، نحن البلاد المكشوفة عورات كهربائها وطرقاتها وصرفها الصحي وعدالتها وأخلاقيّاتها، شظايا الإبداع التكنولوجي العالمي بعد سنوات من صدوره في سيليكون فالي. ستصلنا إذاً الكتب الإلكترونيّة بعد عام أو اثنين، وسنتدرّب عليها، ونفاخر بأننا الروّاد في استقبالها واستهلاكها. وهذا ما حاولته دار الجديد، قبل الترويج لسلعة أبل، مع القائمين على مشروع الكتاب الإلكتروني العربي التجريبي، وسارعت إلى نقل كتبها على هذا الحامل الفعّال.

لا مفرّ، كما نعرف جميعاً، من أقدارنا التكنولوجيّة تلك المتوأمة مصائرها مع

ردود فعل الأسواق وما تتّخذه الدول من قرارات إستراتيجية على مستوى الخفائض (البنى التحتيّة) فأين شبكة الإنترنت في بلادنا منها في الولايات المتحدة ! فلو ابتاع أحدنا اليوم آخر صرخات شركة التفّاحة لما تمكّن من استعمالها وتطبيقها في سوق الكتاب العربي، وهي سوق شبحيّة على الأرجح، رغم ازدهار معارض الكتب.

أقدارنا التكنولوجيّة تلك التي صدعنا وسنصدع لأحكامها القالبة، أحياناً، رأساً على عقب، مسار حيواتنا لن تحلّ ما نشكو منه من أمراض، ولن ترفع من أسهم دمي ونور عينيّ، فالهاتف والحاسوب والكتاب الإلكتروني والصاروخ والطائرة بمستعمليها وصائنيها ومطوّريها. أفليست الخيل بفرسانها وفارساتها؟ أفليست الجامعات بعلمائها؟ والكتب بقرّائها وبالباحثين عنها في أبعد البقاع؟ يبدو لي، بعد سنوات من العمل في واحد من ثغور الكتابة والقراءة، أنّنا من بلاد يعزّ فيها الفرسان والفارسات، وإن وُجدوا فليسوا، رغم بعض الاستثناءات، في القياد.